مطالعات فى التصـــوف

عوارف المعارف - معرفة النفس

(تتمـــة)

وأنت اذا أردت أن تقف لمؤلف عوارف المعارف على رأى خاص فى مسألة الروح وجدت أنه لايستطيع أن يقطع برأى فى ذلك إذ هو يرى نفسه ازاء أقوال متناقضة ومذاهب متضاربة لايكاد الانسان يأخذ بأحدها حتى يأتى الآخر فينسخ الأول ويزعزع رأيه فيه . ومن هنا كان مؤلفنا أميل ما يكون الى الامساك عن القطع برأى فى هذه المعضلة . عرض المؤلف بعد ماقدمت لك لمسألة الروح الانسانى وغيره من أنواع الارواح . وموجز قوله فى هذا الصدد هو أن الروح الانسانى العلوى من عالم الأمر . والروح الحيوانى البشرى من عالم الخلق . وهذا الروح البشرى هو محل الروح العلوى ومورده . وهو جسمانى لطيف حامل لقوة الحس والحركة . وانه لينبعث من القلب الذى هو عبارة عن هذه المضغة اللحمية الموجودة فى الجانب الأيسر من الجسد وينتشر فى تجاويف العروق الضوارب . وهذا الروح موجود لدى سائر الحيوانات تفيض منه قوى الحواس ، ولورود الروح الانسانى العلوى على هذا الروح الحيوانى تجنس الروح الانسانى وباين أرواح الحيوانات الأخرى واكتسب صفة أخرى فصار نفسا محلا للنطق والألهام . ومن هنا تلاحظ أن النفس الانسانية تكونت من سكون الروح الانسانى العلوى الى الروح الحيوانى ، مثلها فى هذا السكون كمثل سكون آدم الى حواء بحيث نشأ بينهما التآلف والتعاشق .

ومسألة أخرى من تلك المسائل الفلسفية والنفسية حدثنا عنها المؤلف فى هذا الباب ، واعنى بها مسألة العقل ومركزه وآراء الناس فى هذا المركز . والناس يختلفون فى مركز العقل كما يختلفون فى غير العقل من الملكات الباطنية . فمن قائل بأن مركز العقل الدماغ . ومن قائل آخر بأنه القلب . ولعل اختلافهم هذا راجع الى عدم استقرار العقل وبقائه على نسق واحد . فهو ينجذب الى الباطن تارة والى العالم تارة أخرى . ورد فى اخبار داود عليه السلام أنه سأل ابنه سليمان : أى موضع للعقل منك ؟ قال : القلب لأنه قالب الروح . والروح قالب الحياة . وقال أبو سعيد القرشى : الروح روحان : روح الحياة ، وروح المهات . فاذا اجتمعا عقل الجسم . وروح المهات هى التى اذا خرجت من الجسد صار الحى ميتا . وروح الحياة هى مابه مجارى الانفاس وقوة الاكل والشرب وغيرها . وقال بعضهم « الروح نسيم طيب يكون به الحياة . والنفس ريح حلوة تكون منها الحركات المذمومة والشهوات » . ويعمد المؤلف بعد هذا كله الى الموازنة بين الروح والنفس بحيث يبين لنا من خلال بعض الاقوال ، الاخلاق والصفات التى تصدر عن كل من الروح والنفس . فقد قيل أن النفس لطيفة مودعة فى القلب ، منها الاخلاق والصفات المذمومة . على حين أن الروح لطيفة مودعة فى القلب منها الاخلاق والصفات المحمودة . ومثل النفس والروح فيما يصدر عن الاولى من أخلاق وصفات مذمومة وما يصدر عن الثانية من اخلاق وصفات محمودة كمثل الحراس فى أن العين مثلا للبصر والاذن للسمع . . . الخ . وترجع اخلاق النفس وصفاتها جميعا الى أصلين . أحدهما الطيش والآخر الشره . وقد نشأ طيش النفس من جهلها ونشأ شرهها من حرصها . ومثل النفس فى طيشها كمثل كرة مستديرة على مكان أملس لا تكاد تستقر أو تثبت ولكنها على العكس دائمة الاضطراب والحركة . ومثلها فى شرهها كمثل الفراش اليدى يساور المصباح فلا يقنع منه بالضوء اليسير ولكنه يلقى بنفسه عليه ليغمره ضوء هذا المصباح حيث يلقى حتفه . ومن الطيش نشأت العجلة وقلة الصبر . ومن الشره نشأ الحرص والطمع وهما هذان الخلقان اللذان ظهرا فى آدم حين طمع فى الخلود فحرص على أكل الشجرة . وأنت اذا انعمت النظر فيما يذكر مؤلف عوارف المعارف عن الشره واتخاذه أصلا من الأصلين اللذين تصدر عنهما أخلاق النفس رأيت أن فى كلامه تناقضاً . وبعبارة اخرى دوراكما يقول المناطقة . فهو يقول أن شره النفس ناشىء من حرصها ثم يعود بعد هذا فيقول أن الحرص والطمع خلقان ينشآن عن الشره . واذن فالشره فى بادىء الأمر نتيجة للحرص ، ثم هو فى آخره مبدأ له . وعلى هذا يكون الدور ظاهر . ومهما يكن من شىء فان النفس على كل حال مصدر للاخلاق المذمومة . فمن عرف أصولها وطبيعتها ، وتبين أخلاقها وجبلتها ، عرف أن لا قدرة له على كبح جماحها ومغالبة اهوائها وشهواتها الا بالاستعانة فى ذلك كله بباريها وفاطرها

ولا يتحقق العبد بالانسانية ، الا اذا دبر فى نفسه دواعى الحيوانية وذلك بالعلم والعدل ومراعاة طرفى الافراط والتفريط ، فبهذا تقوى انسانيته وتنقى نفسيته ويدرك من نفسه صفات الاخلاق المذمومة بحيث ينتهى الى كمال انسانيته .

تعال ولنمض الآن الى أوصاف النفس . فقد ذكر مؤلفنا ان الله وصف النفس فى كتابه العزيز بأوصاف ثلاثة : فوصفها بأنها مطمئنة فقال : « يا أيها النفس المطمئنة » وبأنها لوامة فقال : « لا أقسم بيوم

القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة » . وأخيرا بأنها أمارة بالسوء فقال : « إن النفس لأمارة بالسوء » وهذه النفس التي وصفت بأوصاف متباينة واحدة . فأذا امتلأ القلب سكينة ألبس النفس ثوب الطمأنينة لأن السكينة تزيد في الايمان . وفي هذه الطمأنينة يرقى القلب الى محل الروح لما منح من حظ اليقين . وحين يتجه القلب الى محل الروح تتجه النفس الى محل القلب . وهي في هذا تصيب من الطمأنينة حظاً . وإذن فانت ترى أن النفس والروح يتطاردان بحيث يملك القلب دواعي النفس تارة ، ودواعي الروح تارة أخرى ، كما ترى أيضا ان الملكات الباطنية عند الصوفية هي الروح والقلب والنفس . وانهم ليضيفون اليها ملكة رابعة اختلفوا في شأنها كما اختلفوا في غيرها . هذه الملكة هي « السر » . ويذكر مؤلف عوارف المعارف شيئا عن هذا الاختلاف في أمر السر فيقول ان من الصوفية من جعله بعد القلب وقبل الروح . ومنهم من جعله بعد الروح وأعلى منها والطف . ولقد قالوا ان السر محل المشاهدة ، والروح محل المحبة ، والقلب محل المعرفة . ولا بد من أن نلاحظ أن السر لم يرد ذكره في القرآن ، وإنما ورد ذكر الروح والنفس والقلب والفؤاد والعقل . ويرى مؤلف عوارف المعارف انه لما لم يذكر هذا السر في القرآن ، ولما اختلف الصوفية فيه هذا الاختلاف فهو لا وجود له وجودا مستقلا في ذاته بحيث يكون ملكة خاصة كالروح أو النفس . وإنما هو وصف زائد تكتسبه الروح حينا ، والقلب حينا آخر عند ما يتطلع كل منهما الى مواطن القرب . وإذن فليس السر شيئا آخر غير الروح ، مكتسبة وصفا زائدا على أوصافها ، أو غير قلب مكتسب وصفا زائدا على أوصافه .

ولا بد من أن نذكر شيئا عن العقل . فهو كما يقول مؤلفنا — لسان الروح وترجمان البصيرة ، والبصيرة للروح بمثابة القلب ، والعقل بمثابة اللسان . ولقد شرف الله تعالى العقل في حديث قدسي خاطبه فيه بقوله : « . . . وعزتي وجلالي ، وعظمتي وكبريائي ، وسلطاني وجبروتي . ما خلقت خلقا أحب الي منك ولا أكرم علي منك . بك أعرف وبك أحمد وبك أطاع وبك أعبد وبك آخذ وإياك أعاتب ولك الثواب وعليك العقاب . وما أكرمتك بشيء أفضل من الصبر . » واختلف الناس في ماهية العقل . فمريق يرى أنه من العلوم . فمن خلا من جميع العلوم لا يوصف بالعقل . وليس العقل كل العلوم إذ أن الخالي من أغلبها متصف بالعقل ، وليس العقل من العلوم النظرية . فمن شرط ابتداء النظر تقدم كمال العقل . وإذن فهو من العلوم الضرورية وليس جميعها . فصاحب الحواس المختلة عاقل على الرغم من أنه فقد بعض مدارك العلوم الضرورية . وفريق آخر يذهب الى أن العقل صفة يتهيأ بها درك العلوم كما قال المحاسبي : « غريزة يتهيأ بها درك هذه العلوم . ويقول بعضهم ان العقل عقلان عقل للهداية مسكنه القلب وهو للمؤمنين الموقنين . وعقل مركزه الدماغ : يدبر الأول أمر الآخرة ويدبر الثاني أمر الدنيا . ولكنه على كل حال عقل واحد .

تلك خلاصة هذا الباب الخصب من كتاب عوارف المعارف ولست أشك في أنك توافقني على ما امتاز به من البحث الدقيق والفكر العميق والجمع بين التصوف وما وراء الطبيعة وعلم النفس جميعا يظهرك على ما بين هذه العلوم من صلة وثيقة تكفي لأن تبين لك ما للتصوف من مكانة فلسفية وقيمة نفسية بين العلوم التي أنتجها الفكر الاسلامي ؟

محمد مصطفى حلمي
ماجستير في الآداب

نداء الى أدباء العرب

الاحتفال بمرور ألف عام

على وفاة شاعر العربية الأكبر

أبي الطيب احمد المتنبي

قتل أبو الطيب المتنبي في رمضان سنة ٣٥٤ للهجرة وفي رمضان سنة ١٣٥٤ اي بعد سنتين وشهرين يمر ألف عام على وفاة شاعرنا العظيم

إن مرور عشرة قرون على وفاة أديب كبير لحادث ذو شأن في تاريخ الأدب . واني أناشد الأدباء في البلدان العربية أن يفكروا في اقامة مهرجان عظيم تشترك فيه وفود تمثل الاقطار العربية الشقيقة احتفالا بذكرى شاعرنا الخالد .

واني أرجو أن يترك أمر تأليف لجنة الاحتفال للمجمع العلمي العربي في دمشق أو للمجمع العربي الذي أنشأه جلالة فؤاد الاول ملك مصر أو لهيئة جديدة تمثل فيها جميع الاقطار العربية .

بيروت